



- إلى أحبّتي ذوي المزاج المكتئب بلا سبب واضح..  
- إلى المذنبين يختزلون وجودهم في قضية خيرة وامرأة جميلة، لوجهها فعل الحراب على لحم قلوبهم..  
- إلى مقضوضي المضاجع لأن رائحة الوجود العظنة تزكم أنوفهم..  
لنا أدري أهو ضعف إنساني أم قوة حين تستقبل الحياة بمزاج أغنية؟

\*\*\*

في لحظة اكتئاب كالتّي يمرُّ بها محكومٌ بالإعدام سمعتُ ياس خضر في واحدة من أغانيه. أدريتُ زُرّ مسجلي القديم فانبعثَ صوتُ كمانٍ أولاً. تذكرتُكم فوراً وكتبتُ على ورقة بجانبني: إياكم أن تسمعوا هذه الأغنية في الظلام لأنها ستحيلكم إلى رماد، لأنها (أي الأغنية) تعرف كيف تؤلِّب الظلام ضدكم فتغدون ظلمةً على ظلمة كما غدوتُ. أنا مثلكم، أشبهكم كثيراً في انسحاقِي أمام أغنية. لذتي المازوشية تنتصر علي بسهولة على قدر ما بالأغنية من اكتئاب. طبعٌ قديم

موروث لا ذنب لي فيه منذ ألفتُ وعورة العيش والموت المجاني في بلد أكبر ما فيه مقبرة. أثرت بعد أن شطّنتني الأغنية أن أتلو عليكم بياناً ختامياً كتبتُه بدمعي الأكثر نقاءً من دمي وأقل كثافةً منه، كتبتُ:

الكمّان الذي تبدأ به أغنية "أنشد... أنشد" يشبه الكلمات الموجزة التي تُلَى عند رأس المحتضر، هو عذيلةٌ منعّمةٌ أو تلقينٌ لترصين الموتى وتهيئتهم لخطوبٍ منكرٍ ونكيرٍ ووحشة المقبر. يُشعرك الكمّان أن شرايين القلب المتاجية قد تقطعت بفعل فاعل لا تدري من هو، كأنها لسان أراد أن يقول كلمته قبل أن يُقطع. ثم يطل عليك ياس خضر برصيدٍ حزنٍ يضاهاى به فجاجعه المنتظرة كلها ليخبرك بأنه ينشد، وتستمر الأغنية.

إذا كانت الآه والمحسرة، التي تكتنزها بطينات قلبك بطريفة سادية، أو الزفرة التي تشبه حرقه الجالي، قيد التشكّل في قلبك فلا تدن من ياس خضر في هذه الأغنية، لأنك حتمًا ستفقد القدرة الضرورية على تعيين الحدود الفاصلة بين اللذة والألم. فأنا وأنت نعرف أن الأغنية، أية أغنية، ابتداءً إنسانيًا لترويض الحزن أو لمفاقمة السرور، أو لمنع الدمع من أن يغدو سمًا زعافًا، رغبةً من في رؤية العالم على حقيقته، أو للحد من فوضاه أو قبحه. أما "أنشد... أنشد" فلا تؤدي غير مهمة واحدة يعرفها الموهولون في ورم قلوبهم، ورمهم الإنساني نتيجةً لفساد الناس أو المدن، هي تجميد الحزن وتعليقه في الهواء ليراه ويسمعه الذين كفوا للتو عن تغيب هستيري على شيء ثمين فقدوه في زحمة انشغالهم بما هو أقل ثمنًا وأهميةً. أغنية تسرع وتائر النبض نحو فعل استثنائي كالذي يفكر به من يقف على مقصلة. سمعتُها فنخبت اليه كلهم ليوقفوا زحف الزهايمر لأنني موقن أن لا معنى مني ومن ذاكرتي من "دونها". أغنية وصلت بي إلى مشارف السوداين مع أن ربعي يجزموه أني عاقل جدًا. نعم، صحيح أني شعرتُ، بعد سماعها، أنني أفضل، بطريقة ما، ممن حولي لأنني أستطيع تبضيع أعضائي المهمة بشفرة "أنشد... أنشد" الباشطة، لكنني لست موقنًا من أنني سأعود لسابق عهدي مع الحياة قبل المشروع بسماعها. بحثتُ وأنا أسمع الأغنية عن الإبرة في لوري المتبن برغم يقيني أنني لن أجدها، ومع هذا فاللذة في الميأس الذي تبته الأغنية لا يختلف كثيرًا عن أمل رمادي هجين في العثور على ما لا أعرف مهمًا بدا باهظًا. قربتني "أنشد... أنشد" من عرج السواحل، فألفيتني "معها"، أحتضن "كفيها"، وأطيل النظر في "شفتيها" هامًا بامتصاص رحيق الخلود اليقظ منهنما. أغنية تغور إلى النخاع فترعشه وتتسدد فوقه كجورية تزيّن شعرا نديا لامرأة حبلى من حبيبها. كان هذا ما دامت المبكرة تدور في مسج لي القديم.

خاض لحن الأغنية كلّ الحروب قبل أن يستقرّ في أذنيك. لحنٌ بجلدٍ بقّعه المشطّايا ورقّطه أنين المحالّمين بمغادرة حقول الألغام والأرض المحرام والعودة إلى بيت يظلّ له الغيم وتعط منه رائحة بخورٍ وطعامٍ تعدّه امرأة تحبك. أغنية تجبرك على ترديد اللازمة المخالدة: الله كريم، ليس لأنك رأيت الله واضحًا حسب، بل لأنك غدوت بعدها مدوهن، لا تدري ما الذي يجدر بك فعله أو قوله. أغنية أجبرتني على المتظاهر بموت قديم كي أبعد عن جلدي خشونة الكفن أو نعومته المفترطة لأنّها ذكرتني بخيبة راسخة حين مرت حبيبتي بجانب ذات صبح ولم تسلّم. أحسنت بعد سماعها، أول مرة، التفكير بالانتحار وأحسنت تأجيله أيضًا طمعًا بيوم جميل نبأتنى بقدمه عرافة جنوبية بأسنان ذهبية. قالت: ستلتقيها، وسيصنع وجهها قلبك مرتين.

أغنية أعادتني إلى حقول المشلب التي دفن سري فيها، ووشمت روعي برسوم لأنصاف قطع خلفية في أزقة ضيقة سكنتها وأنا أفكّر بالشماعية أكثر مما فكرت بشيء آخر، ذلك لأنني، كما قالت العرافة، أحببتُها فضمنتُ جمالي، غير أنني سأمضي الباقي من عمري بنصف عقل ونصف بوصلة. أغنية أعانتني على التأقلم مع الخيبات بسهولة. ويرغم أنني على أهبة المهجرة دائمًا جعلتني الأغنية أكثر من السمّنت في الخبّطات طمعًا بمزيد من الصلابة للسقوف التي تظلّ لني. أغنية للمواسم كلها، لاسيما مواسم المزرع والمطر على أبواب الجوامع ليلاً لاستلام توأبيت زريدها متينةً وجميلةً. أغنية يرددها الجنّاة عادةً ليوقفوا انتحابهم فتنوء هي بمهمة استدرار الدمع على مصيرنا الترابي.

وأنتم تسمعون الأغنية، لا تراقبوا الهرم السريع الذي يدبّ على جلودكم لأنني أعرف أنكم ما زلتم صبيانًا، لا تعيروه أذانكم. آزرُوا البياكي بحرقه بـ "أنشد... أنشد".

صديقي الحبيب: اسمع الأغنية، راقب حركة الوجد الحلزونيّة فيها عن كثب، ثم اتصل بي كي نبيكي معًا.